تحليل كتاب عبد الرحمن الثعالبي و التصوف لعبد الرزاق قسوم.

الأستاذة عجاس سهام

المركز الجامعيخميس مليانة.

ملخص عن البحث :

إن الغاية الأساسية من هذا المقال هو إظهار عطاءات الفيلسوف عبد الرزاق قسوم التي أصبحت المرجع الأساسي لنا عند دراسة التصوف عند عبد الرحمن الثعالبي، زد على ذلك فكرة الزمن عند ابن رشد وكذا دراسته لمدارس الفكر العربي وما قدمه من خلال كتبه كنزيف قلم جزائري، وما نعيشه اليوم أكبر دليل على غياب ذلك الجسر بين الكاتب والمؤلف الفيلسوف أو غيره لذا لابد علينا من البحث عن التبادل العلمي المعرفي والثقافي ذلك أنه من غير الممكن للجزائر أن تتطور وتقيم تنمية حقيقية و في جميع المجالات و على الصعيد الدولي دون قيم التسامح و الوسطية ، وهو الذي يمثل ما جاء به عبد الرزاق قسوم ذلك الأديب الفذ في زمن الإنقطاع عن قراءة الكتب واستبدالها بلأنترنت وغيرها من وسائل الإعلام الجديد والملاحظ أن أعمال هذا الفيلسوف تتيح إرساء قواعدعمل حضارية جماعية ممنهجة تعمل على الإبتعاد عن العنف الفكري ،وكذا إحياء التواصل الفعال بين الدراسات الحضارية والنقدية والنهوض بهما إلى أعلى مراتب العلم والمعرفة .

أول ما نبتدأ به المداخلة هو كلمة الفيلسوف عبد الرزاق قسوم خصوصا و أننا في صدد تكريم وإشادة بعطاءات الرجل الشخصية الفذة والمتمثلة في :"و الله نسأل أن تكون هذه المداخلة عند حسن ظن الجميع و أن تضيف لبنة إلى هيكل البناء العلمي الجامعي"

سنحاول إن شاء الله التركيز عل ثلاث نقاط أساسية في مداخلتنا ألا وهي:

1- قسوم في وصف عبد الرحمن الثعالبي من خلال العصر الذي عاش فيه من الناحية السياسية،الإجتماعية،الثقافية، ومدينته ,أيضا حياته الثقافية ورحلاته العلمية،
2- فكرة التصوف عند الثعالبي المفهوم والتطور بداية من مذهبه الكلامي و تصوفه ،وكذا الأخلاق الإجتماعية والنفسية عنده،منهجه في التفسير،و المرائي .
3- تقييم التصوف بنظرة الثعالبي من الناحية الإيجابية والسلبية و الحث على البحث أكثر في الجوانب التي لا نعرفها عن هذه الشخصية.

و تندرج مداخلتنا في المحور الثاني المتضمن عطاءات الأستاذ عبد الرزاق قسوم و هدفها الأساسي هو معرفة الإيجابي والسلبي من التصوف،لذا ارتاينا تحليل كتاب عبد الرحمن الثعالبي و التصوف .

1- قسوم في وصف حياة عبد الرحمن الثعالبي:

عاش ما بين (786-857هـ/1384-1470م)و هو من كبار المفسرين وأعيان الجزائروعلمائها إن الثعالبي عاش في عصر يسوده الانحطاط الحضاري في مختلف الميادين حيث كان العالم الاسلامي عامة مسرحا للفتن و الحروب التي كانت تقطع اوصاله ،و شهد القرن السابع و الثامن بعد الهجرة انقسام المسلمين الى دويلات و ملوك ينظر بعضهم الى بعض نظرة العدو المتربص بعدوه... و هكذا بلي الاسلام بمصائب تمددت مصادرها و تمثلت في التتار القادمين من الشرق و في الصليبيين القادمين من الغرب، بالاضافة الى العداوة المستحكمة التي كانت تميز طابع العلاقات بين الامراء و الفرق و موالاة اهل الذمة للاعداء ايا كان لونهم.

هذا سياسيا، اما اجتماعيا و بسبب الحروب القبلية الدائرة بين اجزاء المغرب العربي" بين حكامه وولاته" قد تركت آثارا بسبب دعائه عليهم. و عقاب نال قوما من قبيلة بني صالح بالاطلس البليدي و قد أجبروه على الرقص معهم و هناكاسطورة أخرى أكثر غرابة ذلك أنه زار ذات يوم الولي الشهير "سيدي امحمد بن عودة الوهراني وهو المشهور بترويض الأسود على ما تروي الأسطورة،و عندما مثل الزائر أمام الثعالبي سأله:أين أترك أسدي؟ فأجابه: اتركه مع بقرتي ففعل الرجل و عندما دخل الى خلوة الشيخ وجد حسانا

يؤدين له الزيارة فتعجب الزائر من هذا التصرف و تمنى له أنه لو كان في المدينة بدل الجبال،حتى يحظى بمثل هذه الزيارات.
و فهم الثعالبي ما يدور بخلد زائره فنزع عنه ظنونه بقوله:ان العبادة في القلوب و ليست بين الجبال أو في المدينة" و لم تنتهي القصة هنا و لكنها انتهت حين قفل الزائر عائدا الى بلاده ففتش على أسده و لكن دهشته كانت كبيرة حين وجد أسده ابتلعته بقرة الشيخ الثعالبي.
-هذه أمثلة على تصديق المجتمع للأولياء الى حد صار ينسب اليهم خوارق لا يمكن التصديق بها و هي تؤكد أن هذا العصر كان يموج في بحر من الخرافات و هو ما وصفه القاضي أبا عبد الله المقرئ حين وصف الحياة الاجتماعية" لولا انقطاع الوحي لنزل فينا أكثر مما نزل في اليهود و النصارى لأننا أتينا أكثر مما أتوا".

-أما فيما يخص الحياة الثقافية فقد اتسمت بانشاء المدارس الرسمية التي اعتمدت منهجين هما الاجتهاد و الاعتماد، كما سجل فيها انتشار التصوف و المتصوفين أمثال ابراهيم المصمودي، و كل هذا تم على خلفية آثار الغزالي و بالتالي عبد الرحمن الثعالبي وجد الحركة الصوفيةالمطبوعة بطابع الغزالي في أنشط فتراتها و من هنا فليس غريبا أن ينهل من منبعها الصافي.
-أما فيما يخص مدينة الثعالبي فهي مدينة الجزائر العاصمة التي مازال اسمها مرتبطا به الى اليوم فهي مدينة "القطب الرباني_سيدي عبد الرحمن" و يتردد هذا التعبير كثيرا في الأغاني والأهازيج الشعبية و الأمثال عندنا بحيث لا يكاد أحد من عامة الشعب يذكر العاصمة الجزائرية الا مقترنة بعبارة "مدينة سيدي عبد الرحمن"، و لعل وضع الثعالبي في اطار التصوف الاسلامي مع التركيز على معنى التصوف و محاولة النظر اليه بالمنظار العلمي الواضح يعتبر جديدا بالنسبة لهذه الشخصية الجزائرية. فنحن نظلم الرجل اذا ما حصرناه داخل الاسم الديني بالمفهوم العلمي فقط كما يفعل معظم الناس في الجزائر وفي غيرها حين يقدمونه على انه الولي،الورع، صاحب الزاوية المسماة باسمه.
-الزاوية الثعالبية: توجد بالقصبة و هو الحي الشعبي المعروف في تاريخ كفاح عاصمة الجزائر كما توجد بجانبها مدرسة تحمل نفس الاسم.

-ننتقل الآن الى حياة الثعالبي، "الذي عاش ما بين (786-857هـ/1384-1470م)و هو من كبار المفسرين وأعيان الجزائروعلمائها"[1]،

---

[1] **بودالية تواتية،سوالمية نورية:المرجعية الدينية الوطنية للخطاب المسجدي بين التأصيل التاريخي والواقع المعاصر،مجلة الثقافة الإسلامية:المؤسسة الدينية ،الأشكال والوظائف،دراسة العدد:ضوابط الفتوى بين مقام التسيير والإحتياط،العدد 09،الجزائر، 2012،ص58.**

ولقد بواد يسر و نشأ بين أحضان أسرة علم و صلاح و أخلاق فاضلة و تنتسب هذه الأسرة كما دلت التراجم الى جعفر بن أبي طالب عم النبي [2]صلى الله عليه و سلم، كما ان أجداده هم رؤساء متيجة الى غاية اندثار ملكهم على يد دولة بني عبد الواد،و قد فتح عينيه على03 مدن شهيرة هي:

-المغرب الأوسط= مدينة الجزائر

-بجاية

-تلمسان[3]

-و فيما يتعلق بثقافة الثعالبي فقد كانت رحلته في طلب العلم شيقة و شاقة، فهي شيقة لتعدد العواصم الثقافية و نوعية العلماء الذين التقى بهم أو أخذ عنهم و هي شاقة لأنها طويلة بدأت بواد سير بنواحي عاصمة المغرب الأوسط و انتهت الى الحجاز في أقصى الشرق العربي. و يقول في مخطوط هام له:" لقد رحلت في طلب العلم من ناحية الجزائر من موضع يقال له"يسر"(بالياء المثناة من أسفل و سين مشددة مهملة مفتوحة ،و بعدها راء) و هو مشهور هناك و ذلك في أواخر القرن الثامن و تناهت رحلتي الى بجاية".

- اذن في بجاية سنة 802هـ/1399م دخل الثعالبي و التقى مع أصحاب الزاهد أبي زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي و أصحاب الشيخ أبي العباس أحمد بن ادريس بالاضافة الى علماء آخرين أسهموا في خلق الحركة العلمية في بجاية خلال القرن 8هـ و تضلعهم في مجالات المعرفة على اختلاف أنواعها من لغة و فقه و حديث و دين و هي أولى عناصر تكوين الثعالبي ثقافيا.

-ثم يقول الثعالبي رحلت الى تونس و دخلتها في أواخر 809هـ/1406م و أوائل عام 810هـ/1407م فوجدت أصحاب الشيخ ابن عرفة،و لشيخنا الجامع بين علمي المعقول و المنقول أبو عبد الله محمد بن خلف الأبي و شيخنا أبو القاسم البرزلي و شيخنا أبو يوسف يعقوب الزغبي و غيرهم وأكثر عمدتي على الأبي.

-ثم رحلت الى المشرق و دخلت مصر فلقيت بها الشيخ أبا عبد الله محمد البلالي ثم حضرت قراءة شيء من الموطأ بمكة ثم رجعت الى مصر فحضرت مجلس أبي عبد الله البساطي... و الشيخ ولي الدين أحمد بن عبد الرحيم العراقي.

---

[2]عبد الرحمن الثعالبي:العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة،الجزائر،1327هـ،ص2،1.

المخطوط عبارة عن مخطوط ضخم يقع في أكثر من 500 ورقة يحتوي على ترجمة وافية لحياة الثعالبي.

[3] عبد الرزاق قسوم:عبد الرحمن الثعالبي والتصوف،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،بدون سنة ،ص 31.

ثم رجعت الى تونس فوجدت شيخنا أبا مهدي عيسى الغبريني قد ملت و خلفه في موضعه الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد القلشاني فأخذت عنه و لازمته مدة، و أخذت عن البرزلي في المدة الأخيرة البخاري... و لم يكن يومئذ بتونس من أعلمه يفوتني في علم الحديث منه في الله.

بالتالي هذه ثقافة الثعالبي و هي من كان لها توجيهه الوجهة الصوفية.وكان له أكثر من تسعين كتاب منها:

- الجواهر الحسان في تفسير القرآن
- روضة الأنوار و نزهة الأخيار في الفقه.
- جامع الأمهات في أحكام العبادات.
- الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز.
- الأنوار المضيئة في الجمع بين الشريعة والحقيقة.
- الإرشاد في مصالح العباد
- رياض الصالحين.
- إرشاد السالك
- العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة."[4]

2- فكرة التصوف عند الثعالبي المفهوم والتطور:

-نصل الى آراء الثعالبي الكلامية بالنسبة للفلسفة الاسلامية في نقطتين أساسيتين :

1-الألوهية: لقد ألف الثعالبي كتابا في التعريفات يشتمل في أكثره على تحديد لمصطلحات كلامية بالاضافة الى تحديد مصطلحات في التصوف، فعرف علم الكلام بأنه:" هو العلم بأحكام الألوهية و ارسال الرسل و صدقهم في جميع أخبارهم و ما يتوقف عليه شيء من ذلك خالصا له"

و يتطرق لتحديد مفهوم لفظ الجلالة بأنها " اسم جامع لمعاني الذات و الصفات، و الأفعال ،و ان شئت قلت هو اسم لموجود واجب الوجود،موصوف بالصفات منزه عن الآفات لا شريك له في المخلوقات" [5].

و هو يفند آراء مذاهب كالدهرية،المجسمة،العطلة القدرية و غيرهم، ثم يذهب لقضية رؤية الله و يفند ما جاءت به المعتزلة،ثم يعرض رأيه .

-و يعرض رأيه في قضية الألوهية دائما فيؤكد بأن أهل الحق جمعوا ما قيل في التوحيد في مبدأين:

1-الاعتقاد بأن ما تصور في الأوهام مخلوق و الله جل خالقه.

2- أن ذاته تعالى غير مشبهة بالذوات في قوله تعالى:"ليس كمثله شيء" .

---

[4] **بودالية تواتية،سوالمية نورية:نفس المرجع السابق، ،ص58.**

[5] **عبد الرزاق قسوم :نفس المرجع السابق، ص ص 42-43.**

–ثم يتعرض للحرية و الجبرية و يبين آراءه الكلامية هي نسق على هدي التاب و السنة و هو يصرح بأنه يسير في هذا السبيل على نهج الامام الغزالي و ابن رشد و اعتمد في آرائه على المنطق وأثبت ذلك من خلال المصطلحات التي عرضها والأفكار التي شرحها و منهجه يشبه الى حد كبير منهج امام الحرمين الجويني في كتابه "الارشاد".

– و يمضي على هذا النمط في شرحه للمصطلحات الأصولية المنطقية فيحدد معنى:الجائز،و الواجب و المحدود، و الضروري، و الكل و المجموع.

– ثم يتطرق الى التصوف الذي تعددت تعاريفه و مفاهيمه، و تعريفه أمر عسير لأن التصوف أمر قلبي و هو من مقولة الوجدانيات الشخصية و لا يمكن تعريفه بتعريف عام جامع مانع و هذا للحكمة الصوفية القائلة:"الطرق الى الله على عدد أنفاس البشر" مع وجود حقيقة أن التصوف على نوعين:

1– التصوف العلمي أو الزهد.

2–التصوف الفلسفي.

و يتضح لنا كذلك أن تصوف الثعالبي تصوف اسلامي صحيح يستمد أصوله من الكتاب و السنة و من المدارس التي اعتمد عليها:

*المدرسة الغزالية: حيث نجد آثارها و خيوطها في كل صفحة من كتبه.

و يؤكد ما ذهب إليه الأستاذ عبد الرزاق قسومحقائق عديدة أهمها:

1/الثعالبي جاء في عصر انتشرت فيه النزعة الغزالية في التصوف.

2/ الشبه الواضح بين الطريقة التي سلكها الثعالبي و الغزالي في التأليف و الأفكار و المواقف.

3/ كل من الثعالبي و الغزالي عاش في عصر فيه الانحلال و الضعف االسياسي و معالم البذخ.

4/ اتفاق نوعية الانتاج لدى كل من الغزالي و الثعالبي فقد أنتج الأول "احياء علوم الدين" و أنتج الثعالبي " العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة"....الخ

5/ استوحى الثعالبي عناوين كتبه من عناوين كتب الغزالي مثل:

* **الجواهر الحسان في تفسير القرآن** مستوحى من **جوهر القرآن**

* **العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة** مستوحى من **الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة**

* **الأنوار المضيئة الجامعة بين الشريعة و الحقيقة** مستوحى من **مشكاة الأنوار**.

–و بالتالي انتهج الثعالبي تصوف يعتمد على الكتاب و السنة و يرفض كل أنواع الجدل القائم حول المذاهب الشائعة كوحدة الوجود، و قد اتخذ موقفا معاديا من بعض المذاهب الصوفية ما يدل على سعة علمه و اتساع أفقه.

- و هناك بعض آثار الثعالبي الشعرية الدالة على تصوفه:

تسر الليالي بنفسي و مالي *************** **فيا قوم. مالي عن الموت سالي**

نهاري جدال،و ليلي انجدال *************** **و حولي رجال،على مثل حالي**

سواء ان كان على تحسره أو حزنه،ابتهالا و رجاء و تفاني في حب الله.

و فيما يخص المنهج الذي اعتمده في التصو ف منهج متعدد الجوانب و يهدف الى غاية كبرى هي سلوك طريق المتصوفين المشهورين باتباعهم الكتاب و السنة و يتوضح منهجه من خلال عدة نقاط:

1- موضوع النفس:يضعه في إطار باب العزلة حيث يقول :إن كل الآفات دخلت غالبا من جهة الحواس و بها استبعت النفس الروح و أوصلته الى أسفل سافلين.

2- نظرية المعرفة:حيث يقسمها الى معرفة للخواص و معرفة للعوام حيث يقول:" فمن عرف الله أطاعه و من جهله عصاه فطاعة الطائعين على قدر معرفتهم و معصية العاصين بقدر جهلهم"[6]

3- التوبة: يقول "أنها الرجوع من أفعال مذمومة الى أفعال محمودة" و يتجسد من خلال البكاء عند تلاوة القرآن و كذا نصحه بالتوبة للغافلين".

4- الورع:و ربطه بالتوبة و خصص له في مؤلفاته أبوابا عديدة فيعرفه: "و لاخفاء أن المكاسب المجمع على تحريمها،يجب تركها على المكلف و لكن لا ينبغي الاقتصار على تركها فقط بل يترقى الى ترك الشبهات" و يقرن الورع بـ "ترك فضول الكلام و ما لا يعني".

5- الزهد: يبدي رأيه مبتدئا بحديث النبي صلى الله عليه و سلم:" ان روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فانك مفارقه، و عش ما شئت فانك ميت ، و اعمل ماشئت فانك مجزى به" فيعلق : ان هذه الكلمات جامعة لحكم الأولين والآخرين و هي كافية للتأمين و لو وقفوا على معانيها و غلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم و لحالت بينهم و بين التلفت للدنيا بالكلية" و يزيد على ذلك: " و اياك أن تغفل على الله طرفة عين، واعلم أن ذلك لا يتيسر مالم تنقطع عنالدنيا بقدر ضرورتك و الضرورة مطعم و ملبس و مسكن و الباقي كله فضول و الضرورة من المطعم ما يقيم صلبك و يسد رمقك".

- و النتائج المتوصل اليها:

1-التحرر من قيود الحياة المادية المتمثلة في مظاهر البذخ و الترف و الغفلة عن ذكر الله.

2-و التمسك الشديد بالكتاب و السنة في كل ما يصدر من احكام.

3- موافقة الظاهر الباطن في التصرفات تحقيقا لهدف واحد هو كسب رضا الله.

---

[6] **عبد الرحمن الثعالبي: رياض الصالحين،مخ رقم 592،دار الكتب الوطنية، تونس الورقة 07**

–و فيما يتعلق بالثعالبي و الأخلاق وبما أنها شديدة الارتباط بالدين أن تحظى بمكانة هامة عنده و قسمها عبد الرزاق قسوم الى أخلاق اجتماعية كالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و الزواج و الطلاق و الحوار وما الى ذلك أو أخلاقا نفسية كالمحبة و العجب و الكبرياء و الشجاعة وغيرها.
حيث قسم الثعالبي الأخلاق الاجتماعية الى03أنواع:
1*أخلاق تتعلق بالقلوب:العقيدة الصحيحة مع ما تتطلبه من ايمان بوحدانية الخالق.
2* أخلاق تتعلق بالأقوال: يقسمها الى مأمور به و منهى عنه.
3*و أخلاق تتعلق بالأفعال: آداب النكاح و العقيقة.
كما لم يغفل عن آداب السفر و آداب المخالطة و المعاشرة.

و قد وضع 03 شروط للعمل الأخلاقي:
1/كون الآمر عالما بالمأمورية و المنهى عنه أي أن المعرفة شرط ضروري فبل التصدي لأي عمل اجتماعي أخلاقي.
2/أن لا يؤدي انكار المنكر الى منكر أكبر منه كأن ينهي أحد عن الشرب فيؤدي ذلك االى قتل نفس.
3/ أن يعلم أو يغلب على ظنه انكار المنكر مزيل له و أن أمره بالمعروف مؤثر فيه.
–أما فيما يخص الأخلاق النفسية فيقول" أوصيك يا أخي بتقوى الله العظيم في السر و العلانية و حفظ الحواس و مراعاة الأنفاس و قلة المخالطة للناس و الرضا بالموجود و الصبر على المفقود و الوفاء بالعهد و كثرة الركوع و السجود، وكثرة التدبير و الاختيار مع المدبر المختار و العمل بالسنة و الاقتداء بالأئمة،و الحركات و السكنات بالنية و لزوم الخلوات و الجوامع و مواصلة الفقير الجائع و موافقة المتبتل الطائع، و معالجة المنيب الخاشع، و معاشرة الوفي الخاضع".
بالاضافة الى المحبة و العجب و الكبرياء.

–و اذا ما أردنا التطرق الى **منهج الثعالبي في التفسير** لنرى ان كان يتسم بنزعة صوفية و هذا من خلال تفسيره لكتاب" الجواهر الحسان في تفسير القرآن" حيث يحتوي 04 أجزاء كل جزء فيه 300 ورقة أو أكثر، و على هذا الأساس يعتبر الثعالبي مفسرا حيث أنالتفسير نشأ مع القرآن منذ بداية نزوله على محمد صلى الله عليه و سلم و يختلف باختلاف الأزمنة و المفسرين، و نجد أن الثعالبي سبقه تفسير ابن عطية" الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" الذي اعتمده في دراسته بسبب:
*الاتجاه العقائدي
*الثقة التي يتمتع بها ابن عطية و تفسيره.
*التجاوب الإقليمي.

و المذهب الفقهي الذي يدعمه بشدة تمسك المغاربة بالحفاظ على الكتاب و السنة، يفسر ذلك أخذهم بالمذهب المالكي المعروف بالتمسك بالنص .

–و قد اعتبر الثعالبي و ابن عطية من أصحاب التفسير بالمأثور لأن كل منهما يتمسك بالكتاب و السنة وأقوال السلف الصالح كمصدر لكل أحكامه المصدرة في تفسيره للآيات.

– مع كل هذا نجد **الاتجاه الصوفي للثعالبي** عند قوله في خاتمة كتابه "الجواهر الحسان قي تفسير القرآن" "إني رأيت لكتابي هذا المسمى بالجواهر الحسان قي تفسير القرآن الذي ألفت هذا الغريب عجائب و أمورا مباركة لايمكنني الآن استفاؤها جميعا أخشى أن يكون من باب افشاء أسرار الله التي لا يمكن ذكرها إلا بإذن أهلها اهل الذوق".

–كما يأخذ موقفا مناوئا للمانوية و هم القائلون بالنور و الظلمة، بالتالي التفسير الصوفي عنده يتماشى مع خطة العلم القائم على الكتاب و السنة ،كما أنه كان رافضا و معاديا للاشارية المفرقة في الاشارة،و لكنه استخلص بعض الاشارات الخفية من الآيات مثل تفسيره للبسملة حين يقول:"و البسملة تسعة عشر حرفا،قال بعض الناس ان ملائكة النار الذين يقول الله فيهم:عليهاتسعة عشر،إنما ترتب عددهم على حروف بسم الله الرحمن الرحيم"

ونستخلص أن الثعالبي في تفسيره يفتقر إلى الإبداع الخصب لأنه تقمص رأي مشائخه أو أقوال مأثورة عن السلف الصالح وهذا لا ينفي الجهد الكبير الذي بذله في هذا السفر الضخم و الذي أبرز سعة علمه و سلامة معتقده وسيره في الطريق السوي.

وعند التعرض للمرائي عند الثعالبي على أساس أن الرؤيا وسيلة من وسائل التعبير العفوي عن النفس أثناء إرتخاء الجسد و نومه و من ثم فإن الإهتمام بها سيساعد مساعدة كبير على تحليل نفس الشخص و هذا حتى يتسنى لنا الحكم له أو عليه ويكون الحلم آنذاك عمليا و موضوعيا.

– أما المرحلة التاريخية للأحلام يبدؤها بتعريف الحلم الذي يعبر عن شرود الفكر و غيبوبة النفس عما هي فيه بالنوم أو تحت تأثير عوامل أخرى ...و تستعمل عند مختلف الأشخاص ،إنها خيط نفساني تلتقي حوله الإنسانية جمعاء،أما عبارة الرؤيا فيه انصرفت تلقائيا إلى المعنى الديني يعبر عن طهارة النفس و نقاوتها فشيخنا الثعالبي يذهب في تفسيره للآية"لهم البشرى في الحياة الدنيا و في الآخرة "[7]إلى أن البشرى في الحياة الدنيا هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له.

---

[7] **الآية 64 – سورة يونس – مكية**

– و يأخذنا عبد الرزاق قسوم لنقطة أخرى تتمثل في موقف العلم الحديث من الأحلام بدا من سيقموند فرويد ،بورداخ و هافنر و فيجانت و غيرهم حيث فيهم من ذهب إلى أن العلم لا يتصل البتة بما يمر بذاكرتنا من خير أو شر في اليقظة و فيهم على العكس من ذلك من يؤكد أن العلم ليس إلا اكتشافا – على نحو ما– لحياة اليقظة، ويذهب فريق ثالث إلى أن مشاعرنا لها دخل كبير في خلق أحلامنا حول الموضوعات التي كان لها أكبر الأثر في وجداننا،بالتالي فرويد هو الأبرز من خلال تفسيره الأحلام بطابع الكبت العاطفي و خاصة الجنسي.

– يصل بنا إلى نقطة أخرى هي الحلم بين العلم والدين حيث يحاول كلاهما وضع مقاييس و رموز لحل ألغاز الأحلام و دينيا نجد أمثلة في القرآن كقصة يوسف أو رؤية القاضي الذي أرسله عمر بن الخطاب إلى الشام،فسار القاضي ثم رجع
عن طريقه فقلنا له :ماردك؟قال: رأيت في منامي كأن الشمس والقمر يتحاربان، وكأن بعض الكواكب مع الشمس وبعض الكواكب مع القمر،فسأله ومع أيهما كنت أنت؟ قال:مع القمر فرد عليه عمر:انطلق فلا حاجة لي بك و تلا الآية:"وجعلنا
الليل و النهار آيتين فمحونا آية الليل و جعلنا آية النهار مبصرة"[8] في حين فرويد هو الآخر وضع قائمة من المقاييس تصلح للمساعدة على تفسير الأحلام مثل العلب،الصناديق،الحجرات والمدافئ إنما تعبر عن رحم المرأة و كلها تعبر عن الجانب الجنسي،

و إذا أردنا معرفة رأي الفلاسفة و المتصوفين في الحلم فنجد أرسطو وديكارت وكذلك ابن سينا و ابو العلاء المعري أما عند الصوفية فالرؤيا كما يقول الغزالي:"انكشاف لا يحصل إلا بانقطاع الغشاوة عن القلب ،فلذلك لا يثق إلا برؤيا الرجل الصالح،الصادق ومن كثرت مفاسده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث احلام" ،

ثم نجد أهل الكلام في الحلم الذين تعددت أقوالهم في الرؤيا فكل فريق له مذهب،ونصل إلى مرائي الثعالبيالذي كان شديد الإهتمام بالرؤيا و الذي يرجع حسب اعتقاد عبد الرزاق قسوم إلى اقتناعه بصدقها اقتداء بمن سبقه من السلف الصالح و يروى عن عبد الرحمن الثعالبي قوله :"بينما أنا نائم ذات ليلة سبحان الحي الذي لا ينام بعد أن قرأت اثني عشر حزبا من
كتاب الله عز وجل وصليت أنا وبعض أخواني خمسة عشر تسليمة ،قرأت فاتحة الكتاب مرة،وقل هو الله أحد خمسين مرة،ثم انصرفت إلى مسجد أبي سفيان الثوري وجددت الوضوء ونمت على طهارة،فإذا انا

---

[8] الآية 12– سورة الإسراء– مكية.

برجل وعليه ثياب بيض،فوكزني برجله اليمنى و قال لي قم توضأ فتوضأت،فلم أجد له أثررا سوى رائحة المسك،فبكيت بكاء شديدا وجلست أتلو كتاب الله عز وجل إلى الصباح،فلما أقبلت الليلة الثانية اتيت إلى المسجد المذكور ،فصليت المغرب وجلست أتلو كتاب الله عز و جل و قلت في دعائي،اللهم أنت ثقتي ورجائي إن كانت هذه الرؤيا حقا لا يخالطها شيطان فأرها لي في هذه الليلة المباركة،وكانت الليلة الأولى ليلة جمعة و الليلة الثانية ليلة السبت فلما أكملت دعائي نمت فإذا برجل الأول(الرجل الأول) بذاته وصفاته فوكزني برجله اليمنى و قال لي قم فلما توضأت شعرت بنفس ما شعرت به في الليلة الماضية من رائحة مسك...الخ،فلما أقبلت الليلة الثالثة أقبلت إلى المسجد المذكور وصليت فيه المغرب و بقيت أتاو القرآن و نفس الأدعية الماضية،ثم نمت فإذا برجل غير الأول،ذلك الرجل وعليه ثياب خضر فقبلني بين عيني وانصرف عني ولم يخاطبني بشيء من الكلام،فقلت ياسيدي سألتك بالله العلي العظيم ونبيه الكريم إلا ما خبرتني عن الرجل الذي أتاني قبل،ومن أنت؟فقال لي:"ويحك لولا أنك أقسمت علي بالله العظيم ما أخبرتك ولا سرنا إلا مكتوم و لكن اسمع مني ما أقول بعد لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم،أما الرجل الذي أتاك أول ليلة فهو أبوبكر الصديق،وأنا عمر بن الخطاب و ليلة الإثنين يريك الله نبيك و رسولك و حبيبك وترى عيناك محمدا صلى الله عليه وسلم،فقلت له ياسيدي: قف لي أقبل فاك فقال لي:ياعبد الرحمن عليك رائحة البصل ونحن اناس نجلس مع الملائكة و الملائكة لا يتحملون رائحة البصل ولا غيرها من الروائح المكروهة لكن قبل يدي"فقبلت يده و انصرف عني،فلما أقبلت الليلة الرابعة أتيت إلى المسجد المذكور،ففعلت كما تعودت أن أفعل ثم نمت على طهارة فإذا أنا بغمامة بيضاء فيها أصوات،فقمت مرعوبا من أصواتهم وهم يقولون سبحان خالق الخلق وباسط الرزق،سبحان القاضي الحق ،ثم مددت بصري إلى أسفل الغمامة فإذا أسفل منها قبة يخرج منها نور لامع كشعاع الشمس و بين يديها فارس كأنه البرج المصنوع وعليه رداء وتحته جواد لايشبهه شيء من الصافنات الجياد،و قوائمه اثنان من الذهب و اثنان من الفضة البيضاء،وريشه من الزعفران،وهو في سيره أسرع من السهم فعند ذلك دعوت الله عز وجل أن يعطيني قوة حتى ألحق بذلك الفارس،فأساله عن الغمامة و الأصوات والقبة والنورر الذي يخرج منها فوالله ما أكملت دعائي حتى رأيت عجاجة حمراء دارت بي وحملتني في الهواء وأنزلتني قليلا قليلا بين يدي ذلك الفارس،فلما أردت أن أخاطبه خرس لساني عن الكلام،فقال اللهم أطلق لسانه حتى ينطق بما شاء"فأطلق الله لسانه،قلت له ياسيدي سألتك بالله العظيم ونبيه الكريم أن تخبرني عن هذه الغمامة وعن القبة التي أسفل منها و عن النور الذي يخرج منها و عن الأصوات التي فيها،ومن أنت فقال لي:"ويحك لولا أنك أقسمت علي الخ...،ثم قال:"أما االغمامة فهي التي ذكرها الله في القرآن وظللنا عليهم وهي التي تظل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة،اما الأصوات فهي أصوات حملة العرش،وأما القبة الخضراء فهي قبة الإسلام،وأما النور الذي يخرج منها فهو نور سيد الأولين والاخرين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم و أنا جبريل، و يمضي الثعالبي في قص رؤياه على الناسس فيذكر أنه طلب رؤية النبي في المنام من جبريل و أن دعوته أجيبت إذا

انطلق نحو القبة، فلما قرب منها طلب منه أن يسأل مايشاء ، فبدأ يقول "قلت ياسيدي صف لي نفسك لئلا يكذبوني الناس عند مقالتي"

قال:ويحك يا عبد الرحمن لو اجتمعت أهل السموات والأرض أن يكتبوا شيئا من أوصافي لم يقدروا على ذلك و لكن أريك الأصول حتى تتبين لك الفروع،فإن سألوك عن أوصافي فقل لهم غشاني(الأصح غشيني) نور حتى لا أستطيع النظر إليه،

فقلت ياسيدي،أخبرني بما تشير به علي،فقال:قل لهم نبيكم يقرئكم السلام ويقول لكم ما خلق الله الجنة إلا لكم بغير فخر مني و لا زعم بنفسي،فقلت له ياسيدي زدني،فقال:كل من تاب من أمتي و في قلبه مثقال حبة من الإيمان حرم الله جسده من النار،فقلت له:ياسيدي زدني...إلى غير ذلك من قصة الرؤيا الثعالبية و هي غير مسلم بصحتها حسب قسوم لعدة أسباب:* الأخطاء اللغوية الشائعة التي اتسمت بها الرؤيا.

* رائحة المسك ورائحة البصل تناقض لا مبرر له.
* الوكز بالرجل من جانب أبي بكر وعمر مخالف لأبسط قواعد الأداب العامة...يضاف إلى ذلك طلب السماح بالتقبيل في الفم و هو ما ليس معهودا في العرف الإجتماعي بين الرجال.
* الرؤيا أخذت طابع التشريع الديني لأنها أملت أحكاما و هذا مخالف لمبدأ الإسلام الذي لا يمكن أن تقدم تعاليمه في المنام.
* هذه الرؤيا تدعو إلى التواكل و القعود عن العمل للحياتيين.

و الملاحظ أن أعظم المرائي التي رآها الثعالبي و الحقها بتفسيره تتصل اتصالا وثيقا بهذا الكتاب نفسه مما يفسر شدة شغفه به وقربه إلى نفسه واعتزازه بنتائجه.

– بالتالي هذه النماذج القصيرة من مرائي الثعالبي ساقها الفيلسوف كمثل على زهد الرجل في الدنيا و عيشه في يقظته و منامه مع أعمال الآخرة،

3– تقييم التصوف عند الثعالبي بنظرة عبد الرزاق قسوم:

وضح لنا الفرق الواضح بين ما هو منسوب للثعالبي و يتماشى مع اتجاهه وصدق عقيدته وبين ما هو منحول ومنسوب إليه من أرباب الخرافات وأصحاب الأقاويل من المشعوذين باسم الدين،فالزهد النابع من الإسلام والتصوف الإيجابي المتماشي مع الحياة المستنبط من آثار الثعالبي تجعلنا نقرر أنه جدير بأن يكون مع أولئك السالكين الورعين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

– بالفعل لقد اجتهد الفيلسوف عبد الرزاق قسوم ليرينا شخصية عبد الرحمن الثعالبي المتصوف على حقيقته قدر الإمكان حيث اعتبرها شخصية متعددة الجوانب كل جانب منها يغري بالبحث، فمنهجه في

التفسير بحاجة إلى بحث مستفيض و آراؤه الأخلاقية والكلامية ما تزال مواضيع تستحق البحث و التنقيب هذا دون إغفال تحقيق مخطوطاته العديدة و التي اعتمدها الفيلسوف منها:

- الأنوار الجامعة ببين الشريحة والحقيقة
- حقائق التصوف
- رياض الصالحين وغيره

و في الأخير يدعونا عبد الرزاق قسوم إلى البحث في الجانب العلمي للثعالبي و المختفي على غرار الجانب الديني التقليدي المحافظ مع شكرنا الجزيل للأستاذ على إدارجه بعض الملاحق و المتمثلة في نصوص مختارة للثعالبي مع الإجازات التي أعطاها إياه أساتذته،كما لا ننسى الجانب الحضاري الذي عرضه علينا بحكم انتماء عبد الرحمن الثعالبي للجزائر الوطن الغالي.

خاتمة:

في الأخير نتمنى أنناأظهرنا ولو قليلا منعطاءات الفيلسوف عبد الرزاق قسوم التي أصبحت المرجع الأساسي لنا عند دراسة التصوف عند عبد الرحمن الثعالبي، كما نرجو أننا بينا الجانب الإيجابي والسلبي للتصوف عند الثعالبي باعتباره مسار فكري عنده، مع ضرورة أخذنا فكرة حقيقية عن هذه الشخصية والتي أنا شخصيا لم أكن أعرف عنها إلا القليل القليل والتي نطمح من خلال هذه المداخلة البسيطة والملتقى ككل التوصل إلى تقييم حقيقي للشخصيات الفكرية الجزائرية بغية تشجيع البحث والتنيقب عن مستوى علمي وحضاري فعال على المستوى الوطني ولما لا على المستوى الدولي بدون نسيان التبادل العلمي المعرفي والثقافي ، وهو الذي يمثل ما جاء به أستاذنابإرساء قواعدعمل حضارية جماعية ممنهجة تعمل على الإبتعاد عن العنف الفكري ،"لأن التحضر هو العنصر الأساسي والضروري لتوازن السكان وخلق فرص العمل والتكامل الثقافي داخل المجتمع الواحد ،فضلا عن الإفادة بأصحاب الكفئات و الخبرات حينما ينتقلون إلى المواقع المناسبة لقدراتهم "[9]وكذا إحياء التواصل الفعال بين الدراسات الحضارية والنقدية والنهوض بهما إلى أعلى مراتب العلم والمعرفة .

[9] طاهر محمد بوشلوش:**التحولات الإجتماعية و الإقتصادية و آثارها على القيم في المجتمع الجزائري(1967-1999)دراسة تحليليةميدانية لعينة من الشباب الجامعي**،دار بن مرابط للنشر والتوزيع،الطبعة الأولى،الجزائر،2008،ص126.

قائمة المراجع:

1-كتاب القرآن الكريم

2- الثعالبيعبد الرحمن: **رياض الصالحين**،مخ رقم 592،دار الكتب الوطنية، تونس الورقة 07.

3- الثعالبيعبد الرحمن:**العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة**،الجزائر،1327هـ،

4- بوشلوش طاهر محمد:**التحولات الإجتماعية و الإقتصادية و آثارها على القيم في المجتمع الجزائري(1967-1999)دراسة تحليليةميدانية لعينة من الشباب الجامعي**،دار بن مرابط للنشر والتوزيع،الطبعة الأولى،الجزائر،2008.

5- قسوم عبد الرزاق:**عبد الرحمن الثعالبي والتصوف**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،بدون سنة.

6- بودالية تواتية،سوالمية نورية:**المرجعية الدينية الوطنية للخطاب المسجدي بين التأصيل التاريخي والواقع المعاصر**،مجلة الثقافة الإسلامية:المؤسسة الدينية ،الأشكال والوظائف،دراسة العدد:ضوابط الفتوى بين مقام التسيير والإحتياط،العدد 09،الجزائر، 2012،